

المنعطف الهمير مينوطيقي للفينومينولوجيا

The hermeneutic turn of phenomenology

د. علي العمراني

جامعة الحسن الثاني
الدار البيضاء

ali.elamrani2711@gmail.com



المنعطف الهيرمينوطيقي للفينومينولوجيا

د. علي العمراني

الملخص:

رغم اختلاف مجال الهيرمينوطيقا عن مجال الفينومينولوجيا كما قد يبدو من أول وهلة، فإن نقط اللقاء بينهما كثيرة، خاصة حينما نكون بصدد مقارنة سؤال المعنى والكشف عن الدلالات الخفية سواء التي تحملها الرموز أو النصوص... لذلك تدور هذه الدراسة حول واحد من أهم المنعطفات التي عرفت لها الهيرمينوطيقا في تاريخها الطويل، وهو المنعطف الفينومينولوجي للهيرمينوطيقا، الذي أحدثه بول ريكور. فمن منطلق أن الغاية من التأويل هي الكشف عن المعاني الثاوية خلف النصوص والرموز وتجنب سوء الفهم، كان من الطبيعي أن تنطلق هيرمينوطيقا ريكور من الرمز باعتباره عنصرا باعنا على التفكير من جهة، ووساطة أساسية لفهم الذات شأنه شأن النص من جهة ثانية، وهو الأمر يسهل علينا فهم كيفية انتقال بول ريكور من فلسفة للرمز إلى هيرمينوطيقا فينومينولوجيا. لذلك سنحاول في هذه الدراسة تسليط الضوء على هذا المنعطف وعلى الأسس التي قام عليها والسبل التي جعلته ممكنا، وذلك بالانطلاق من بيان الجوانب المشتركة بين الهيرمينوطيقا والفينومينولوجيا وبيان كيف تم استثمار هذه الأخيرة في سياق الهيرمينوطيقا وبالتالي تحول الإنسان من كائن تأملي إلى كائن تأويلي، وذلك ما لم يكن ممكنا لولا تنقيح الفينومينولوجيا من نزعتها الميثالية.

الكلمات المفتاحية: الهيرمينوطيقا – الفينومينولوجيا – المنعطف الفيرمينوطيقي للفينومينولوجيا – التأويل – الرمز – النص.

Abstract

Although the field of hermeneutics is different from the field of phenomenology as it may seem at first sight however, the similarities among them are numerous. Especially, when we are approaching the question of meaning and revealing hidden connotations whether carried out by symbols or texts ... Therefore, this study revolves around one of the most important turning points that Hermeneutics knew in its long history, which is the phenomenological turn of hermeneutics that was brought about by Paul Ricoeur. Since the purpose of interpretation is to reveal the hidden meaning behind texts, symbols and to avoid misunderstanding, it was natural for Ricoeur's hermeneutics to proceed from the symbol as an element that motivates thought on the one hand, and an essential mediator for self-understanding just like the text on the other hand, which makes it easier for us Understand how Paul Ricoeur moved from a philosophy of allegory to a hermeneutics of phenomenology. Therefore, we will try in this study to shed light on this turning point and the foundations on which it was based on and the ways that made it possible starting from the statement of the common aspects between hermeneutics and phenomenology and how the latter was invested in the context of hermeneutics and thus the transformation of man from a contemplative being to an interpretive being. This would not have been possible without the revision of phenomenology from its idealistic tendency.

Keywords: hermeneutics - phenomenology - the hermeneutic turn of phenomenology - interpretation - symbol - text.

1- المقدمة:

كثيرة هي المنعطفات التي عرفتها الهيرومينوطيقا في تاريخها الطويل، ولعل أولها ذلك الذي تم حينما تم الانتقال من الاهتمام بالنص الديني وتأويله إلى ما عداه من النصوص الأخرى سواء كانت أدبية أو قانونية أو تاريخية... وهو ما تجلى بشكل واضح مع فريدريك شلايرماخر، وتوج مع خلفه فلهايم دلتاي الذي جعل من الفهم أساساً منهجياً للعلوم الإنسانية ونقل التجربة التأويلية إلى مجال التاريخ ككل. غير أن أهم منعطف عرفته الهيرومينوطيقا هو ذلك الذي أحدثته هذه الأخيرة في الفينومينولوجيا، والذي سيحول اهتمامها بشكل مباشر نحو مسألة الفهم في حد ذاته ونحو فهم الكائن لكيونوته، خاصة مع مارتين هيدغير وهانس جورج غادامير، لتتوج مع بول ريكور، بمحاولة تطعيم الفينومينولوجيا بالهيرومينوطيقا، متخذاً الرمز منطلقاً لتفكيره، نظراً لكونه يشكل وساطة أساسية لفهم الذات لذاتها، ويخفي معاني متعددة ومزدوجة، ومستثمراً في نفس الوقت لمجموعة من الحقول المعرفية والتي مكنته من الانتقال من فلسفة الرمز إلى الهيرومينوطيقا، التي لا يخرج مجال اهتمامها عن البحث عن المعنى وعن تجنب سوء الفهم وهو ما يشكل المشترك بينها وبين الفينومينولوجيا. غير أن هذه الأخيرة ظلت متسمة بنزعة مثالية مع هوسرل، في حين أن تطعيمها بالهيرومينوطيقا هو ما سيجعلها متحررة من المثالية وهو ما قام به بول ريكور وما سترصده في هذه الدراسة وذلك بالانطلاق من بيان جوانب التقاطع بين الهيرومينوطيقا والفينومينولوجيا رغم الاختلاف الموجود بينهما، وبيان دور الرمز والمعنى في الانتقال إلى هيرومينوطيقا فينومينولوجية.

2- في العلاقة بين الهيرومينوطيقا والفينومينولوجيا:

لا نجانب الصواب إذا ذهبنا إلى أن الفينومينولوجيا فلسفة ذات منهج واضح، تأسس مع إدموند هوسرل (1859-1938) حيث أوصى بضرورة الرجوع إلى الأشياء ذاتها، بعد تعليق كل حكم سابق يتصل بطبيعتها ووجودها والعمل على وصفها كما تتبدى مباشرة للشعور الخالص باعتبارها ظواهر خالصة. حيث يتوخى الوصف تحديد ماهية الظواهر من حيث هي موضوعات مباشرة للشعور المتعالي والمبدأ الذي يقوم عليه هذا الوصف هو مبدأ قصديه الشعور، ومؤداه أن كل شعور هو شعور بشيء ما¹. هذا التصور الفينومينولوجي لهوسرل يمثل ترميماً وإتماماً للكوجيتو الديكارتي، الذي سعى من خلاله إلى إخراج الأنا من انعزاله وربطه بالعالم، وفي ذلك توسيع للكوجيطو الديكارتي، الذي تقف حدوده عند الأنا والفكر دون أن يرتبط بالتفكير في موضوع خارجي، ودون أن يصل الوعي إلى مستوى الوعي بشيء ما. لذلك فمن حيث إن الإنسان كائن مفكر، فإن تفكيره لا يمكن أن يكون إلا في شيء ما، وهو ما يجعل الوعي عند هوسرل يتجه نحو الموضوع، بغاية الوصول إلى ماهيته. والماهية عند هوسرل؛ هي ما يتبدى به الشيء نفسه للشعور في خبرة شعورية مباشرة، لا يتم إدراكها إلا من خلال إزالة كل الصفات والخصائص الثانوية للظاهرة إلى الحد

1- جان بول سارتر، نظرية في الانفعالات، ترجمة، سامي محمود علي وعبد السلام القفاش، ط1، مصر، مكتبة الأسرة 2001، ص:16.

الذي لا نستطيع رفعها دون القضاء على الموضوع ذاته، هذا الإدراك يقتضي حدسا يتصوره هوسرل على غرار الإدراك الحسي، ويسميه حدس الماهية.

رغم أن الفينومينولوجيا فلسفة قائمة بذاتها ولها منهج مستقل، إلا أنه لا يمكن إنكار بعض الجوانب المشتركة بينها وبين الهيرمينوطيقا ونقصد هنا أساسا سؤال المعنى. فمن الصحيح أن اهتمام هوسرل لا ينصب على تأويل الظواهر بقدر ما يرتكز على الظواهر ذاتها، بغية الوصول إلى ماهيتها، إلا أن الاهتمام بالتأويل لا يخرج عن هذا القصد. ذلك أن التعرف على ما هو ماهوي في ظاهرة ما، والعودة إلى الأشياء ذاتها، لا ينفصل عن البحث عن المعنى المستتر خلف الأشياء، ومساءلة القصدية الكامنة خلف الجزء الظاهر من الظواهر وهي مهمة معقدة تستحق أن تنعت بأنها هيرمينوطيقية حسب جان جرانندن¹.

لذلك يؤكد أنه لا يوجد تباعد بين مفهوم الفهم والاختزال، لأن الأول "يعني بشكل أو بآخر اختزال نظرنا للعالم، وأن نعرف كيف نقيم مسافة فاصلة اتجاه كل ما يقال، حتى نتمكن من إحداث فرق أو اختراق باتجاه المعنى، وباتجاه إرادة القول التي يراد أن ينصت إليها"²، وهو ما يعني حسب جان جرانندان، وجود وحدة مكتملة بين الهيرمينوطيقا والفينومينولوجيا. كما أنه مادام كل وعي هو وعي بشيء ما، فإن العلاقة بين ما يهدف إليه الوعي، وبين المقصود ذاته، تتسم دائما بالتوتر، وهذا التوتر الموجود بين المعنى المقصود والمعنى في حد ذاته، يدخل ضمن مجال الهيرمينوطيقا. ومنه يخلص جان غرانندان، إلى أن أكثر الاستحقاقات الهيرمينوطيقية لهوسرل، هي عدم اختزال المعنى داخل الاتجاه القصدي للموضوع، فالموضوع لا يفعل شيئا سوى أن يقوم بالتشارك في تشكيل المعنى الذي يولد معه في الوقت الذي تظل فيه الأنا في حوار دائم مع معنى لم يحدث وإن تملكته مطلقا³.

لقدت وجدت الهيرمينوطيقا في الفينومينولوجيا المصدر المعرفي والأساس المنهجي الذي كسرت به طوق المنظومة التيولوجية التي صاحبت تشكل نظرية الهيرمينوطيقا، إذ بها انتقلت من ضيق الفكر الجاهز، الذي ينظر إلى الممارسة التأويلية كوسيلة لاستخراج المعاني الدينية البادية في ظاهر الكتاب المقدس، أو المتوارية خلف المعنى الحرفي، إلى رحابة الوجود؛ حيث وطن الكائن ومسكن الفهم، كما أن الهيرمينوطيقا بالمقابل، انتشلت الفينومينولوجيا من سلطة التعالي وأوهام المثالية التي قامت عليها في أصل وضعها، وأدخلتها في مجال تأويل الوجود من خلال صيغة البحث عن المعنى المقصود le sens visé من قبل الشعور فتحول الباحث في ميدانها من كائن تأملي إلى كائن تأويلي⁴.

إن أهمية مجهودات هوسرل تتجلى في توجيهه الفينومينولوجيا نحو ظاهرة القصدية، وبذلك يكون قد دخل الهيرمينوطيقا من بابها الواسع، لكنه وفي مقابل ذلك يكون قد وفر الفرصة للهيرمينوطيقا كي تضع

1- جان جرانندان، المنعرج الهيرمينوطيقي للفينومينولوجيا، ترجمة عمر مهيب، ط1، الجزائر، منشورات الاختلاف، 2007، ص49.

2- المصدر نفسه، ص58.

3- المصدر نفسه، ص60.

4- عبد الغني بارة، الهيرمينوطيقا والفلسفة نحو مشروع عقل تأويلي، ط1، الجزائر، منشورات الاختلاف، 2008، ص196.

بعض الافتراضات غير الفينومينولوجية المتضمنة في فينومينولوجيته موضع تساؤل¹. وهي المهمة التي سيقوم بها تلاميذه بدءاً من مارتن هيدغير إلى بول ريكور، هذا الأخير الذي اعتبر أن "الاختيار لصالح المعنى هو إذن الافتراض المسبق الأعم بالنسبة لكل هيرمينوطيقا"² أي نقطة اللقاء بين الفينومينولوجيا والهيرمينوطيقا. ومنه حاول في مشروعه الفلسفي تطعيم الفينومينولوجيا بالهيرمينوطيقا.

3- الرمز والتأويل:

إذا كانت الهيرمينوطيقا قد عرفت منعرجاً فينومينولوجياً مع مارتن هيدغير (1889-1976)، الذي جعل سؤال التأويل يتجه نحو الانطولوجيا، فإن هذا المنعطف سيستمر مع بول ريكور (2005/1913) حيث حاول تطعيم الفينومينولوجيا بالهيرمينوطيقا، منفتحة في الوقت نفسه على حقول معرفية متعددة وغنية كالتحليل النفسي والسيمانيات والأنثروبولوجيا والتاريخ، مستهلاً مشواره الفكري من اتخاذ الرمز منطلقاً لتفكيره، لدرجة أن فترة الستينيات تلونت في مسيرته الفكرية بهاجس الرمز واصطبغت بصبغته وهو ما يصرح به بوضوح تام حينما يقول: "من الممكن أن نلاحظ، مع ذلك، أن تأويلتي ظلت متمركزة على الرموز إبان سنوات الستينيات، في حين بقيت الرموز محددة بالبنية الدلالية لازدواجية المعنى؛ ذلك أن تقبلاً أكثر اتساعاً للتحليل البنيوي كان يتطلب معالجة "موضوعية" لكل أنساق العلامات، فيما يتجاوز خصوصية الرموز. وبهذا فقد تمخض عن هذا العمل إعادة تحديد المهمة الهيرمينوطيقا وإعادة تنقيح أكثر شمولاً لفلسفتي التأملية"³. ومنه فإن الهيرمينوطيقا عند ريكور، انطلقت من التفكير في الرموز لترسم لنفسها مسارها الخاص ولتسجل منعطفاً جديداً في الهيرمينوطيقا. وما اهتمام ريكور بالرمز إلا لأن هذا الأخير يبعث على التفكير لكونه يحمل معاني ودلالات مختلفة لذلك عرفه بكونه "كل بنية دالة، يشير فيها المعنى المباشر، والأولي، والحرفي، فضلاً عن نفسه إلى معنى آخر غير مباشر، وثانوي، ومجازي، ولا يمكن أن يفهم إلا من خلال المعنى الأول"⁴.

من هنا، كان التأويل عند ريكور، كشفاً عن الدلالات الخفية التي تحملها الرموز فهو "عمل الفكر الذي يتكون من فك المعنى المختبئ في المعنى الظاهر، ويقوم على نشر مستويات المعنى المنضوية في المعنى الحرفي. واني إذ أقول هذا، فإني أحتفظ بالمرجع البدئي للتفسير، أي لتأويل المعاني المحتجبة وهكذا يصبح الرمز والتأويل متصويرين متعالقين"⁵. هكذا فارتباط التأويل بالرمز، نابع من كون الرمز يحمل دلالات خفية لا يمكن الوصول إليها إلا من خلال إزالة الطبقات الخارجية للوصول إلى المعنى الباطن وهو ما يعني أن المعنى

1- المصدر نفسه، ص 61.

2- بول ريكور، من النص إلى الفعل، أبحاث في التأويل، ترجمة محمد برادة، وحسان بورقية، ط1، الرباط، دار الأمان، 2004، ص 44.

3- بول ريكور، بعد طول تأمل، السيرة الذاتية، ترجمة فؤاد مليت، ط1، المغرب، المركز الثقافي العربي، 2006، ص 55.

4- بول ريكور، صراع التأويلات، دراسات هيرمينوطيقية، ترجمة منذر عياشي، ط1، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2005، ص 44.

5- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

متعدد وتعددته تقتضي بالضرورة عمل الفكر وبدء التأويل، مما يجعل عمل المؤول لا يخرج عن البحث عن الدلالة والمعاني الخفية للرموز. ولهذا كان الإمساك بالمعنى الحقيقي هو الإشكال العميق الذي عالجتة الهيرمينوطيقا والذي يجسد التفكير في الرمز أحد تجلياته الأساسية؛ على اعتبار أن هذا الأخير يحمل معنى مزدوجا: ظاهرا وباطنا أو حرفيا ومجازيا، لذلك تظل تعددية الدلالة وازدواجيتها مشكلة تأويلية تظهر بشكل واضح حسب ريكور، حين التفكير في رمزية الشر¹. وهذا ما يمكن أن نفسر به انطلاقه من البحث في الخطيئة و رمزية الشر والإرادة... باعتبارها قضايا تحمل إشكالات تأويلية تقتضي من المؤول النفاذ إلى أعماقها وحل شفراتها وهو جهد سعت من خلاله الهيرمينوطيقا إلى فهم أفضل للذات، عبر وساطة الرمز وعبر التأمل الذي يعد "عودة إلى الذات، وهو ليس عملية انعكاسية فقط، وليس مجرد مرآة يمكن للذات أن تلمح نفسها فيها بل إنها تجربة تتوسطها الرموز والعلامات والآثار، فتكون بذلك معرفة الذات عملية تتحقق على جهة الغيرية"². وما ارتباط فهم الذات بفهم لغة الرمز، إلا لأن هذا الأخير في منظور ريكور يدعو إلى التفكير والتأمل، لذلك يمكن رد فلسفته إلى مبدئين أساسيين يعبر عنهما بالقول التالي: "إن الرمز يدعو للفكر" و "فسر أكثر تفهم أحسن"³؛ حيث يفسر المبدأ الأول، فلسفته عن الإرادة، أما المبدأ الثاني، فإنه يبين التقارب بين الشرح باعتباره أقرب للعلوم الإنسانية من علوم الطبيعة، كما يوضح التنافر الحاصل بين التأويل والملاحظة التجريبية التي تقترب أكثر من مجال العلوم الطبيعية. في حين يكون التأويل آلية أساسية لفتح الدلالة المتخفية للنصوص والكشف عن مكنوناتها. وإذا كان الرمز يشكل منطلقا أساسيا للتفكير عند ريكور من منطلق أنه يبعث على التفكير ويجعلنا نفهم أكثر من خلال الكشف عن الدلالة المتوارية التي يخفيها، فإن ما كان يريد "سبر أغواره والتعمق فيه، هو هذه العلاقة الدائمة والملازمة لكل من الفكر والرمز، وقد شكلت رمزية الشر، بما في ذلك مفهوم الخطيئة الأصلية، مناسبة ومنطلقا حقيقيا للتفكير في هذه العلاقة"⁴.

4- عالم النص وفهم الذات:

لئن كانت هيرمينوطيقا ريكور تسعى إلى فهم الذات، فإن التأويل معها يمر عبر وساطة النص، فنحن نفهم ذاتنا عبر فهم النص الذي يعرفه بكونه " كل خطاب تثبته الكتابة"⁵ فبالكتابة يسجل النص شهادة ميلاده ويعبر عن إبداعية كاتبه، غير أنه بمجرد التعبير عنه كتابة، فإنه يؤسس لانفصاله عن قصد المؤلف. فعن طريق الكتابة يتباعد النص عن المؤلف، وهو ما يجعله حاملا لتأويلات متعددة تختلف باختلاف

1- P. Ricoeur, *Écrit et conférence 2*, Herméneutique, éd seuil, Paris, 2010, p: 23.

2- مصطفى العارف، الهيرمينوطيقا الفلسفية وهيرمينوطيقا النص الديني عند ريكور، ط1، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، الرباط، المغرب، ط، 2018، ص29.

3- مصطفى العارف، الهيرمينوطيقا وهيرمينوطيقا النص الديني عند ريكور، مصدر سابق، ص15.

4- عبد الله بريبي، من رمزية الشر إلى الهيرمينوطيقا، ضمن مجلة قضايا إسلامية معاصرة، عدد 59-60، بغداد مركز دراسات فلسفة الدين، سنة، 2014، ص135.

5- بول ريكور، من النص إلى الفعل، مصدر سابق، ص105.

القارئ. ذلك أن "الانتقال من الكلام إلى الكتابة يؤثر في الخطاب بطرائق متعددة، ولاسيما فيما يتعلق بمسألة المرجع (la reference) التي يحيل إليها المؤلف، والتي لا نجد صداها داخل قصديته، وإنما تخلق عالما خاصا بها داخل النص يسميه ريكور عالم النص"¹، وهو مفهوم بمثابة المفتاح الأساسي لفهم النص في ذاته من خلال العالم الذي يخلقه بعيدا عن المؤلف.

يسير بول ريكور، في نفس المسار الذي سار فيه غادامير، معتبرا أن الكتابة هي ما يجعل النص يعبر عن ذاتية مؤلفه وينفصل عنها، ومنه فليس المهم هو فهم ماهية المؤلف عبر النص، لفهم العالم الذي يحمله بين طياته. غير أن عالم النص ليس سوى "شيء النص" في هيرمينوطيقا غادامير، وهو مفهوم أساسي لفهم النص بعيدا عن ذاتية مؤلفه، ومن خلاله يخطو ريكور خطوة تجعله يتعد عن الإرث الذي تركته هيرمينوطيقا شلايرماخر، التي كانت تهتجس بهاجس البحث عن ماهية مبدعه. لا يهم ريكور ومن قبله غادامير إذن هذا الاهتجاس، بل إن ما يهم هو أن الكتابة تعبر عن عالم يجد مرجعية له خارج النص، ويشكل بذاته بنية منفصلة عن قصد صاحبه، وبذلك فما يمكن فهمه داخل النص هو العالم الموجود فيه وهو ما يعني أن ريكور يربط مغزى النص ب"العالم الذي يكون متحررا من الضوابط التداولية أو الإحالية، إلا أنه يكون مرتبطا بكينونتنا في العالم ارتباطا وثيقا"²، أما دور القارئ فيتحدد في الكشف عن الدلالات والمعاني المتعددة والمتوارية في النص انطلاقا من الوساطات الذاتية التي ينتجها عند قراءته للنص الذي يظل منفتحا على تأويلات متعددة ومتنوعة، وهي التي تجعل الحاجة إلى تأويله ملحة.

لا تخلو قراءة النص عند ريكور، كما هو الحال عند غادامير، من افتراضات مسبقة أو أحكام مسبقة كما يحلو لغادامير نعتها، على اعتبار أن القارئ ليس عنصرا محايدا بل إنه يأتي إلى قراءة النص وهو محمل بافتراضات مسبقة. يسلك ريكور الطريق نفسه، معتبرا أن "ما قبل - الفهم" يعد عنصرا فعلا ينشط التأويل، ويجعله آلية لإنتاج المعنى، الذي لن يكون بالضرورة المعنى الذي قصده المؤلف"³. وبذلك فالكتابة تمنح المؤلف استقلاليته الدلالية، وتجعله متحررا من سياقات إنتاجه ومندرجا في سياقات أخرى بفعل فعل القراءة، باعتباره المجال الذي يقود إلى الفهم والتفسير، وهي الثنائية التي سيعيد ريكور النظر فيها، وسيحاول رفع التعارض بين طرفيها، وهو التعارض الذي أسسه دلناي، حينما اعتبر أن مجال الفهم هو العلوم الإنسانية، في حين أن التفسير ينتهي إلى العلوم الطبيعية. يرفض إذن هذا التعارض محاولا بيان التداخل الموجود بين التفسير والفهم معتبرا أن "عملية التأويل بوصفها خطاب القارئ، في نقاشنا هذا، فقد يقال على نحو تمهيدي في الأقل، وإن التفسير للقراءة يمثل ما يمثله الاستقلال النصي واللفظي للمعنى الموضوعي للخطاب"⁴ وإذا كان القارئ ينطلق من افتراضات مسبقة لفهم النص، فإن التفسير يشكل ضرورة

1- مصطفى العارف، الهيرمينوطيقا الفلسفية وهيرمينوطيقا النص الديني عند بول ريكور، مرجع سابق، ص 61.

2- خالدة حامد، عصر الهيرمينوطيقا، أبحاث في التأويل، ط 1، بيروت - لبنان، منشورات الجمل، سنة 2014، ص 173.

3- مصطفى العارف، الهيرمينوطيقا الفلسفية وهيرمينوطيقا النص الديني عند بول ريكور، مرجع سابق، ص 65.

4- بول ريكور، نظرية التأويل، الخطاب وفائض المعنى، ترجمة سعيد الغانمي، ط 2، الدار البيضاء-المغرب، المركز الثقافي العربي، 2006، ص 118.

لكونه يساعد على تجاوز الافتراضات غير البرينة للقارئ التي يستمدّها من "ما قبل الفهم"، إذ من شأن التفسير الموضوعي أن يجعل القارئ يكشف المعاني الثاوية في بنية النص انطلاقاً من فهم العناصر والعلاقات المؤسسة له وهنا نكون أمام التحليل البنيوي للنص والذي يعتبره آلية اشتغال تتأسس على بنية داخلية منعزلة عن الخارج، حيث لا يوجد خارج النص بالنسبة لأصحاب هذا التحليل بل داخله، في مقابل الاتجاه الهيرمينوطيقي الذي يعتبر أن الفهم يقيم علاقة تواصل بين روح القارئ وروح المؤلف¹. إن الغاية الأساسية من الهيرمينوطيقا هي فهم الذات سواء بوساطة النصوص أو الرموز والعلامات، وذلك عن طريق التملك والمسافة، أي تملك النص والمقصود بهذا المفهوم أن "تأويل النص يجد تحققه داخل تأويل الذات المؤولة لذاتها. وهي في تأويلها للنص تفهم ذاتها بشكل أحسن ومغاير وتبدأ في تحقيق ذلك الفهم الذاتي"² مما يجعل أفق القارئ يتسع ويدمج مع أفق النص، أما المسافة فهي ما يجعل شرط الفهم ممكناً، إذ تبقىنا داخل انتمائنا إلى عالم سابق، وتجعلنا نقيم مسافة نقدية معه. لهذا فالتأويل هو الذي يقرب البعيد ويقاوم مسافة التباعد بين القارئ، والنص ويدمج معنى النص في الفهم الحاضر ويجعل ما كان غريباً مألوفاً.

5- في نقد الفينومينولوجيا والتأسيس لهيرمينوطيقا فينومينولوجية:

إذا كانت هيرمينوطيقا بول ريكور، قد افتتحت مسارها بالتفكير في الرمز باعتباره يحمل إشكالية هيرمينوطيقية تبعث على التفكير وعلى محاولة استكشاف المعنى الخفي من وراء المعنى الظاهر، فإن ذلك ما جعله يفتح على فلسفة اللغة وعلى التحليل النفسي وعلى الفينومينولوجيا، باعتبارها منعطفات منهجية ومعرفية أساسية لتشكيل هيرمينوطيقا فلسفية، قادرة على قراءة وتأويل النصوص؛ حيث "كان في عمله الأول يريد توضيح بعد الشر في بنية الإرادة، ومن هنا استند إلى المنهج التأملي الوصفي لدى هوسرل والثنائي ياسبرز ومارسيل وأطلق على هذا النوع من الوصف الظاهريات الوجودية"³، وإذا كان منطلقه هو مسألة الإرادة وتأويل رمزية الشر وما عداها من الرموز سواء كانت مقدسة أو أسطورة فإن غايته كانت هي البحث عن حقيقة المعنى لأن الرموز تحمل معاني مزدوجة "ويندرج الحلم ومماثلاته على هذا النحو في منطقة من اللغة تعلن عن نفسها أنها محل الدلالات المعقدة حيث معنى آخر يظهر ويحتجب معاً في معنى مباشر، فلنسم هذه المنطقة ذات المعنى المزدوج رمزا... والحال أن هذا المشكل، مشكل المعنى المزدوج غير خاص بالتحليل النفسي: فينومينولوجيا الدين تعرفه أيضاً، والرموز الكونية الكبرى للأرض والسماء والمياه والحياة والأشجار والحجارة"⁴ فالتجربة الإنسانية تغني باعتمادها على الرمز واللغة والعلامات كوساطة بين الذات ونفسهما، فهي مدخل لفهم الذات، لذلك خلص سيغموند فرويد إلى أن كل ما هو مخبأ ومختلف في البنية النفسية العميقة، يمكن فهمه وتعقله بواسطة اللغة؛ على اعتبار أن الرغبة تطفو إلى سطح اللغة

1- مصطفى العارف، الهيرمينوطيقا الفلسفية وهيرمينوطيقا النص الديني عند بول ريكور، مرجع سابق، ص71.

2- عبد الله بريمي، السيرورة التأويلية في هيرمينوسيا هانس جورج غادامير وبول ريكور، مرجع سابق، ص232.

3- أحمد عبد الحليم عطية، ريكور والهيرمينوطيقا، الطبعة 1، بيروت- لبنان، دار الفارابي، 2011، ص32.

4- بول ريكور، في التفسير محاولة في فرويد، ترجمة وجيه أسعد، ط1، دمشق، أطلس للنشر والتوزيع، 2003، ص16.

وتعبر عن ذاتها رمزياً وما على المحلل النفسي إلا أن يفك شفرات الرموز حتى يصل إلى المعنى الخفي الذي تخفيه، وفي هذه الحالة يكون عمله غير خارج عن عمل المؤول وتكون الهيرومينوطيقا تأويلاً للرموز. غير أن هذا المعنى الذي يحصر الهيرومينوطيقا في تأويل الرموز يظل ضيقاً أمام شساعة ما يمكن تأويله، لذلك يوسع مجال الهيرومينوطيقا إلى اتخاذ النصوص كوساطة أساسية لفهم الذات لذاتها بدل الاعتماد فقط على وساطة الرموز. وهنا يكون ريكور في قلب الفلسفة التأملية، التي يوضح أن خطه الفكري لا يخرج في جانب منه عنها، لذلك فالهيرومينوطيقا لا تنفصل عن الفينومينولوجيا الهوسرلية، بل تنخرط في تطعيمها بالهيرومينوطيقا، وفي هذا الصدد يقول: "أود أن أميز التقليد الفلسفي الذي أنتهي إليه بثلاثة ملامح: إنه يندرج في خط الفلسفة التأملية، ويبقى في منطقة الفينومينولوجيا الهوسرلية، ويريد أن يكون بديلاً هيرومينوطيقياً لهذه الفينومينولوجيا"¹.

يقصد ريكور بالفلسفة التأملية، ذلك الخط الفكري المنحدر من الكوجيتو الديكارتي، عبر كانط وفلسفة ما بعد كانط الفرنسية، والتي تهتم أساساً بفهم الذات باعتبارها ذاتاً فاعلة لعمليات المعرفة والإرادة... ويعني بالتأمل "فعل العودة إلى الذات، الذي من خلاله تمسك الذات في وضوح عقلي ومسؤولية أخلاقية، بالمبدأ الموحد للعمليات التي تتشعبت داخلها وتنسى نفسها بوصفها ذاتاً"²، فالتأمل إذن هو استرجاع لوحدة الذات ولتطابقها مع ذاتها، وتحقيقها لوعدها بذاتها. لكن ما العلاقة بين الفينومينولوجيا والهيرومينوطيقا كحقلين معرفيين منفصلين عن بعضهما البعض؟ كيف يمكن تقريب التباعد الحاصل بينهما؟

إذا كانت الفينومينولوجيا تنحدر من تقاليد فلسفة الوعي عند ديكارت، وكان همها هو تحصيل المعنى، فإنها لا تبتعد كثيراً عن مطمح الهيرومينوطيقا التي اهتمت بسؤال الفهم والمعنى والذي سيؤدي بعد قرن من الزمن حسب ريكور من النقاء الهيرومينوطيقا بالفينومينولوجيا، "فصحيح أن الهيرومينوطيقا استمرت في حمل انشغالات مختلفة عن تلك التي اهتمت بها الفينومينولوجيا بشكل ملموس، بينما طرحت هذه الأخيرة سؤال المعنى، في بعده المعرفي والإدراكي، في حين أن الهيرومينوطيقا طرحته، منذ ديلتاي، في أبعاد التاريخ والعلوم الإنسانية. لكنه من الناحيتين، هو نفس السؤال الأساسي عن العلاقة بين المعنى والذات، بين معقولة الأول وتأملية الثانية"³ هكذا فالمشترك بين الهيرومينوطيقا والفينومينولوجيا هو سؤال المعنى. الذي يتم تحصيله من خلال فهم معنى النص والذات القارئة له، من زاوية نظر الهيرومينوطيقا، وبوصفه نتيجة للعلاقة القصديّة لوعي ما بالمعنى الذي يواجهه من الناحية الفينومينولوجية.

غير أن الهيرومينوطيقا مع ريكور، وإن كانت تنطلق من الفينومينولوجيا فإنها لا تبقى عليها كما كانت في صيغتها المثالية مع هوسرل، بل إنها تحاول تطعيمها وتجاوز إخفاقاتها. والسبيل الذي ساعد ريكور في هذه العملية هو وساطة الرموز، يقول في هذا الصدد: "لا يوجد فهم للذات بدون أن يكون موسطاً بعلامات، أو

1- بول ريكور، من النص إلى الفعل، أبحاث التأويل، مرجع سابق، ص 19.

2- المصدر نفسه، ص 25.

3- المصدر نفسه، ص 19.

رموز، أو نصوص. ويتطابق فهم الذات في نهاية الأمر، مع التأويل المطبق على هذه المصطلحات الوسيطة، ذلك أن الانتقال من أحدها إلى الآخر يجعل الهرمينوطيقيًا تتحرر تدريجيًا من المثالية التي حاول هوسرل أن يماهي بها الظاهراتية¹ وهذا لا يعني أن ريكور ينطلق من فينومينولوجيا هوسرل كما هي بل إنه يقدم لها نقداً لاذعاً، خاصة في جانبها المثالي، ويمس نقده هذا أربعة جوانب وهي:

أولاً: في إدعاء الفينومينولوجيا للعلمية، حيث يعتبر أن هدف العلمية، الذي اعتبرته المثالية الهوسرلية تبريراً أخيراً، يبلغ حده الأساسي في الشرط الأنطولوجي للفهم² والذي يمكن شرحه بمفهوم الانتماء الذي لا يمكن تجاوزه بالنسبة لكل مشروع تبريري أو تأسيسي. وإذا كان اكتشاف الفينومينولوجيا العظيم يتمثل في القصدية، فإن نقطة ضعفها أيضاً تتمثل في علاقة الذات-الموضوع، التي تقتضي البحث ما يصنع وحدة معنى الموضوع ووحدة بناء هذه الوحدة في ذاتية مؤسسه. وهي الإشكالية التي يجد لها ريكور حلاً من خلال الانتماء أي انتماء الذات العارفة إلى الموضوع الذي تحاول التعرف عليه.

ثانياً: يتمثل النقد الثاني الذي تقدمه الهرمينوطيقي للفينومينولوجيا، في البناء الأساسي الذي ينتهي لنظام الحدس، ويعتبر في هذا السياق أن غرابة الفينومينولوجيا تكمن في نقد التجربة في الوقت الذي تعتمد فيه على الحدس الخالص، والحال أنه لا يمكن تجاوز حقل التجربة، فالفينومينولوجيا في حد ذاتها لا تتحدد خارج العالم، بل في مكان التجربة الطبيعية ذاته. لذلك لا يمكن تجاوز التجربة مهما كان الحدس يرجع إلى عالم الأفكار³، كما يطرح الحدس إشكالا يتعلق بالوساطة بين الفهم والتأويل وهي الوساطة التي يرفضها ريكور، إذ "تحاول الفينومينولوجيا أن تضع المؤول في الوسط، وليس في البداية أو النهاية، بينما يحاول التأويل أن يقتحم وسط محادثة أو حوار كان قد بدأ من قبل، ومن خلال ذلك يوجهنا التأويل ويجعلنا مساهمين في هذه المحادثة أو الحوار"⁴.

ثالثاً: ينصب نقد الهرمينوطيقي للفينومينولوجيا على مسألة الحدس وعلاقته بالذات، حيث لا ينفصل الحدس عن الذات ويصبح كل تعالٍ مشكوكاً في أمره، بيد أن فهم الذات ومعرفتها هو في حد ذاته أمر مشكوك فيه، لأن معرفة الذات حسب ريكور قد تتعرض لتدخل بنيات مهيمنة، مما يشوش عليها، في حين أن في استطاعة الهرمينوطيقي وحدها فهم الذات وتقديم معرفة عنها، وذلك انطلاقاً من إلحاق نقد الايديولوجيا بفهم الذات وذلك برفعها مفهوم الحكم المسبق وانطلاقاً من مفهوم المباعدة "الذي يقيم مسافة زمنية بين الموضوع المدروس وبين الذات الدارسة. لا تعني المباعدة الموضوعية، بل محاولة تقريب الموضوع تاريخياً، وجعله معاصراً لنا انطلاقاً من استثمار التراث التاريخي الذي يدعم عملية الفهم"⁵.

1- المصدر نفسه، ص 20.

2- المصدر نفسه، ص 33.

3- المصدر نفسه، ص 31.

4- مصطفى العارف، الهرمينوطيقي الفلسفية وهرمينوطيقي النص الديني عند بول ريكور، مرجع سابق، ص 43.

5- المصدر نفسه، ص 44.

رابعا: تتعلق المؤاخذة الرابعة لمثالية هوسرل بمسألة الذات المتأملة، التي تدعو الهيرومينوطيقا إلى جعلها آخر مقولة من مقولات نظرية الفهم، يصبح فهم الذات مرتبطا بالنص، وبذلك يتم استبدال الأنا سيده نفسها، بالذات مریده النص¹ ويتم فهم الذات لذاتها عبر وساطة النص.

لم تكن هذه المؤاخذات التي يوجهها ريكور إلى الفينومينولوجيا المثالية لهوسرل، إلا ليعيد تأسيس الفينومينولوجيا على الهيرومينوطيقا أو على الأقل ليرسم خط الوصل بينهما، والذي وجده من جهة في سؤال المعنى ومن جهة أخرى، في جانب الانتماء المشترك للفلسفة التأملية بعد تخليصها من صيغتها المثالية. وهكذا فإن "مصير الفينومينولوجيا في أن تصبح تأويلية يندرج إذن في مشروع هوسرل لفينومينولوجيا ترنسندنتالية، أي هيرومينوطيقا تأملية، تمنح "الابستمولوجيا" مكانتها، لأنها تظل هيرومينوطيقا الذات من حيث إنها موجود يتطابق فيه بصفة لا متناهية تبيان العالم تبيان الذات"².

6- خاتمة:

صفوة القول، أن المسار الهيرومينوطيقي لريكور سيعرف أثناء سيرورته البحثية منعطفا مهما في اتجاه الفينومينولوجيا. حيث شكلت هذه الأخيرة في صيغتها الهوسرلية، بعد تعديل وتجاوز بعض نزعاتها، أرضية مناسبة لتأسيس فينومينولوجيا هيرومينوطيقية تنطلق من فلسفة تأملية فينومينولوجية لكنها تطرح نفسها كبديل لها. فرغم الاختلاف البين بين حقل الهيرومينوطيقا و الفينومينولوجيا، فإن هذا لا يعنى انعدام الروابط ونقط الالتقاء بينهما، بل إن ما يجمعهما أكثر مما يفرقهما. ولعل مركز التقاطع بينهما هو سؤال المعنى. ذلك أنه رغم أن اهتمام هوسرل لم يكن منصبا على تأويل الظواهر، بقدر ما كان يهدف إلى الوصول إلى ماهيتها، فإن التأويل ذاته لا يخرج عن هذا القصد. فالتعرف على ماهية الظاهرة والعودة إلى الأشياء ذاتها لا ينفصل عن البحث عن المعنى المستتر خلف الأشياء، فهو نتاج للعلاقة بين الذات والموضوع. وهكذا فإذا كان الهم الهيرومينوطيقي يحكمه هاجس فهم ما قاله النص والمعنى المستتر بين ثناياه، فإن القلق الفينومينولوجي ينبع عن العلاقة القصدية لوعي ما بالمعنى الذي يواجهه من الناحية الفينومينولوجية.

وقد استثمرت هيرومينوطيقا ريكور، في سبيل التأسيس لفينومينولوجيا هيرومينوطيقية، مجموعة من الحقول المعرفية كالسميائيات والتحليل النفسى والسانيات والبنوية...أمدته بالأدوات المنهجية الضرورية لمقاربة سؤال المعنى ورسم المسار الهيرومينوطيقي الذي سيسير على هديه، فكانت نقطة انطلاقه هي الرمز الذي وجد فيه باعنا أساسيا على التفكير ووساطة مهمة لفهم الذات، نظرا لغنى المعانى التي يحملها والتي تظل محتجبة ومتخفية إلى أن ينكشف سرها عن طريق الفهم والتأويل. وهو ما ينطبق أيضا على النص بوصفه وسيلة أساسية لفهم الذات، فعبر فهم النص يفهم الإنسان ذاته وهذا ما يجعل تأويل النص يتحقق داخل تأويل الذات المؤولة لذاتها. وعليه يمكن أن نفهم كيف يتحول الإنسان من كائن تأملى إلى كائن تأويلي يؤول ذاته في تأويل النصوص والرموز وكيف استطاعت الهيرومينوطيقا مع ريكور أن تحول الفينومينولوجيا وتؤسسها على أسس هيرومينوطيقية، وهي المهمة الصعبة المنال والتي اقتضت منه تنقيح وتحرير الفينومينولوجيا الهوسرلية من نزعتها المثالية.

1- بول ريكور، من النص إلى الفعل، أبحاث في التأويل، مرجع سابق، ص39.

2- نبهة قارة، الفلسفة والتأويل، الطبعة 1، بيروت-لبنان، دار الطليعة، 1998، ص40-41.

7- قائمة المصادر والمراجع:

- 1- أحمد عبد الحليم عطية، ريكور والهرمينوطيقا، الطبعة 1، بيروت- لبنان، دار الفارابي، 2011.
- 2- بول ريكور، في التفسير محاولة في فرويد، ترجمة وجيه أسعد، الطبعة 1، دمشق، أطلس للنشر والتوزيع، 2003.
- 3- بول ريكور، صراع التأويلات، دراسات هيرمينوطيقية، ترجمة منذر عياشي، الطبعة 1، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2005.
- 4- بول ريكور، بعد طول تأمل، السيرة الذاتية، ترجمة فؤاد مليت، الطبعة 1، المغرب، المركز الثقافي العربي، 2006.
- 5- بول ريكور، نظرية التأويل، الخطاب وفائض المعنى، ترجمة سعيد الغانمي، الطبعة 2، الدار البيضاء- المغرب، المركز الثقافي العربي، 2006.
- 6- بول ريكور، فلسفة الإرادة، الشر تحد للفلسفة واللاهوت، ترجمة عدنان نجيب الدين، الطبعة 2، الدار البيضاء/ بيروت، المركز الثقافي العربي، 2008.
- 7- جان جراندان، المنعرج الهرمينوطيقي للفينومينولوجيا، ترجمة عمر مهيبيل، الطبعة 1، 2007.
- 8- خالدة حامد، عصر الهرمينوطيقا، أبحاث في التأويل، الطبعة 1، بيروت – لبنان، منشورات الجمل، سنة، 2014.
- 9- عبد الله بريحي، السيرورة التأويلية في هرمينوسيا هانس جورج غادامير وبول ريكور، الطبعة 1، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة/ الإمارات، سنة 2010.
- 10- عبد الله بريحي، من رمزية الشر إلى الهرمينوطيقا، ضمن مجلة قضايا إسلامية معاصرة، عدد 59-60، بغداد مركز دراسات فلسفة الدين، سنة، 2014.
- 11- مصطفى العارف، الهرمينوطيقا الفلسفية وهرمينوطيقا النص الديني عند ريكور، الطبعة 1، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، الرباط، المغرب، 2018.
- 12- نبهة قارة، الفلسفة والتأويل، الطبعة 1، بيروت- لبنان، دار الطليعة، 1998.
- 13- P. Ricoeur, *Écrit et conférence 2, Herméneutique*, éd seuil, Paris, 2010.